جامعو الجثث

قصة بقلم محمد خضير

احدثت الحفرة جانب أحد أبواب السور من الخارج ، وكانت أول ثلاث جثث نقلها متطوعو نقل الجثث للحفرة ملقاة لصق السور ،قرب الحفرة . وفي مكان احدى الجثث التقط أحد الرجال ميدالية برونزية أراها لزميليه في داخل الحفرة . قال أحدهم :

ـ ميدالية كرة القدم .

كانت الجثث الثلاث مصفوفة ، ووجوهها للسماء وكان الاعين النصف مفتوحة فيها نرقب الدخان الكثيف الذي يجتاز السور ، ولم تكن ملوثة بالدماء كانها لم تقتل ، غير أن بقعا داكنة ضيقة موزعة في عدة اجزاء منها تشير الى ان الموت نفذ من هناك . قال جامع الجثث أعلى الحفرة :

ـ ليتهم ماتوا كلهم هكذا . وليتهم سيموتون هكذا .

ـ انهم يحرقون شيئا .

ـ اوراق وثياب .

وسحب أحد جامعي الجثث في الحفرة طرف صورة من جيب سروال جثة ، وكانت صورة لفناة وبعد أن عرضها على رفيقيه أدخلها أحد جيوب قميصه الابيض :

ـ سينعرف عليها أحد .

ـ اني أعرف الجثة . ابن الحاجة وهيبة . نجح للثانوية هذا العام . والصورة لابنة الاسكافي حمدان . الاثنان في الثانوية .

ـ هاجرت الحاجة أمس لعمان مع عائلة حمدان . رأيتهم أمس في شاحنة يهودية .

قال الرجل في أعلى الحفرة :

ـ سدوا الاعين . بقوا ينظرون خمسة أيام طويلة دون نوم .

وأطبق الرجلان في الحفرة الاعين المفتوحة ، ثم ساعدهما الاخر على الخروج . وسمعوا طلقات نارية :

ـ ما زال هناك قتل .

أخرج أحدهم منديله وكمم فمه ، وفعل الاخران كذلك . كان منديل الرجل الاول أحمر يتعلق به مخاط يابس ، وكان المنديلان الاخران قريبين من الزرقة والخضرة الداكنة :

ـ ذلك كي لا نتذكرهم طويلا . وستعرف الدوريات مهمتنا فنحن ننظف المدينة .

ـ عشر سنوات لا تكفي لتنظيفها .

ـ لو نعصب عيوننا لا أفواهنا .

ـ الامر سواء .

كانوا يغطون رؤوسهم بكوفيات بيضاء وعقل رفيعة سوداء ، ولقد عقدوا المناديل فوق الكفافي . ساروا بمحاذاة السور وكانت ظلالهم تنسحب على بصمات آكف مدماة غطت ندوب حجارة السور التي كانها حفرت بأظفار حديدية . ومن قوس البوابة المحاط بثلاثة أقمار حجرية، تدلى سلكان مقطوعان . ومر جامعو الجثث بجنود اسرائيليين يثبتون السونكيات في بنادقهم ويختفون في عتمة ثنية البوابة ، ثم خرجوا للضوء ثانية وبرزت رؤوسهم من بين رؤوس مدببة ، كانت ظلالا لرؤوس حجرية مدببة تتقارب في أعلى سور البوابة كأوثان كنعانية . وداخل السور هنا كان الدخان المشوب برائحة الاوراق والثياب يأتي من اليمين . وخلال الدخان تلوح الحافات المستقيمة المتوازية للاسطح، تنفتح تحتها الافواس المتراكبة ، وعموديا عليها ترتفع بتفاوت الابراج والقباب وأعمدة الراديو وأعمدة المظلات والصلبان والنواقيس . وتحت الشمس المقلوبة الوجه ـ لان ضوءها لم يكن يشمل كل الارجاء ولانه كان متدليا في الاثير كثنيات ثوب ناصع البياض دقيق النسيج ممزق الحواف ـ كانت قبة الصخرة تتكور بخلسة خلال فتحات الاسطح ، كنهد العذراء .

كانوا قد قطعوا ساحة مقفرة بعد البوابة وارتقوا درجات الى حارة قصيرة مفتوحة هدمت نوافذها ـ ولم يخلف الموت لحد الان اية جثة ـ ثم انتهوا الى مفرق أزقة مسقوفة . قال جامع الجثث المكمم بالمنديل الاحمر للاخرين :

ـ لنتفرق . ولنجمع الجثث القريبة اولا ونحملها للحفرة.فتشوا هذه الحارة . بعضهم جر جثث معارفه الى ما خلف الابواب .

ثم تركهما واتجه لحارة مسقوفة مسوية . اختفى ثوب الشمس واصبحت حوافه الدقيقة النسيج تدلي خيوطها من فتحات السقف العادية ، ومن فتحة كبيرة احدثتها قنبلة محرقة في حجارة السقف المعقودة . وتحت الفتحة الكبيرة تميل عربة ذات مقبض مفرد على كوم انقاض ، يقسمها الضوء الهابط من الفتحة لنصفين ، كما يقسم جسما ممددا داخلها ، ميتا ، محترق الاطراف والوجه . سحب جامع الجثث العربة ففارت عجلة منها في كوم الانقاض وسحبت معها الاحجار والزجاج وقطع الشمع من مظلات الدكاكين ومزقا من اوراق الصحف . كانت العجلة مائلة . وشاهد جامع الجثث رأسا هرما أغبر برز من دكان قريب . وقال الرأس الاغبر :

ـ هاك سلكا لتصلح العجلة .

قال جامع الجثث :

ـ حسبت دكانك خاويا .

ـ لم يتركوا شيئا ليباع .

ـ لم تفتح اذن ؟

ـ لا عمل لدي . ولا بيت . هذا السبب .

كانت الدكاكين المجاورة والمقابلة خاوية ، وبعضها موارب المصاريع دون اقفال . وفي فسحة بين بابي دكانين متجاورين ، تحطم فانوس انفصل عن مقبضه المزخرف المثبت للجدار الحجري وتدلى للاسفل بسلك دقيق جدا ، دائرا حول نفسه ببطء شديد . وانهمك جامع الجثث في اصلاح عجلة العربة ، وتوقف جنديان اسرائيليان عند الدكان واغتصبا من صاحبه علبة ثقاب بعد نقاش عصبي قصير ، ثم انتزع احدهما الفانوس المعلق برأس بندقيته ، ولم يبديا اهتماما بجامع الجثث وهما يجتازانه ويبتعدان . قال صاحب الدكان :

ـ هكذا ستجري الامور .

قال جامع الجثث :

ـ ابحث عن عمل آخر . لم لا تنضم الينا ؟

ـ فكرت في ذلك . ولكني اعرف القتلى جميعهم . وهم يمرون كل الاوقات في طريقهم للمقهى ! الغريب عنهم هو الذي يستطيع دفنهم . هذا هو السبب .

وسحب جامع الجثث العربة مارا بالدكان ، قال صاحبه :

ـ هربت بهيمتها وبقي صاحبها المحترق غافيا فيها . بقيت يومين

أرقبه ثم كفكف . كان قد جاء من رام الله قبل الحرب بيومين لكنه لم يعثر على أقاربه ذلك الصباح .

وفي نهاية الحارة المسقوفة خرج جامع الجثث من القوس للضوء ـ ضوء يوم المعراج ، وابتدأت حارة اخرى مفتوحة . ومن هنا ، كان يرى ذلك الضوء يهبط للحارة السابقة من فتحات السقف بحزم منحرفة تكون مع بعضها صلبانا متداخلة تخترق ضباب الموت الذي خلفته القنابل وتنفرز في أعبرة الرمل التي جلبتها سراويل الجنود وأحذيتهم . كما انقطع هنا ضي الضوء فصيح الارواح التي بقيت تحمي الجثث الملقاة هناك ، ولعلها ستغادر سريعا ذلك النفق ، حاملة معها الصلبان الضوئية الى حيث لا يعلم أحد . كانت الحارة المفتوحة اسفلتية ، أكثر اتساعا ، تنحصر بين قوسين ، تحوي مقهى وأنابيب عديدة للمجاري ونوافذ مقاربة ومتقابلة تبرز عن الجدران الصيفة ، وكل الابواب فيها مغلقه ، ولا شيء فيها يدل على أن الحياة التي غادرتها ستملأها عن قرب ، واذا ما عادت فانها ستبقى مرة وقاسية ، غريبة .

كان باب المقهى محطم الزجاج ، مقشر الصبغ ، أحدثت رصاصات عدة ثقوب فيه . وعلى الدرجات القليلة للمقهى استلقت جثة شابة . ولان الجثة كانت تستقر على درجة والرأس يستقر بين اليدين الممدودين على درجة أعلى ، فان الظهر الذي تمزق عنه القميص كان يكشف بوضوح عن النجمة السداسية التي رسمت على اللحم الأبيض بطرف سونكي حاد ، وقد تخثر الدم بأضلاعها وغدت داكنة . رصف جامع الجثث الجثة الجديدة لسابقتها في العربة . وتلا المقهى قوس يؤدي بسلم مسقوف الى قوس اخر . وفي قمة القوس الاول تتجاور نافذتان مرتفعتان مهدمتان تطلان على الحاره ، يميل بينهما صليب خشبي مفصوف . ومن احدى النافذتين تدلى يد رخوة للخارج، انتشرت حولها الحفر أحدثها الرصاص في الجدار . وهز جامع الجثث بابا قريبا فوجده مغلقا من الداخل . غير أن أنبوبا للمجاري كان يرتفع جانب الباب لصق الجدار ، ينتهي أسفله بمسيل مياه غير جافه تسربت بين حجارة الارض . وتجاوبت خطوات سريعه باضطراب من داخل سلالم القوسين . ثم بانت شلة أشباح متراصة تهبط سلم القوس الثاني ، وضحت في سلم القوس الاول بثيابها المسربلة ورؤوسها الملفوفه بقطع القماش المشجرة ـ كانت جماعة عجائز يهوديات تتبعهن دوريه اسرائيلية . وأطلت عجوز تحمل صرة تحت ابطها في باطن العربة وأخذت تنشج ، تلا ذلك صرخات عبرية متبادلة بين العجوز والجنود ، بينما أبعدت الخطوات السريعة نضرب الحجارة في خبب يهودي . ترك جامع الجثث الباب ، حيث انتبه لجثة على احدى درجات السلم داخل طاق القوس الاول . كانت جثة نقية أخرى كان سكتة قلبية أودت بها . كل بلاطة في جدار طاق القوس تستقل في وضعيتها وبروزها ومساحتها عن البلاطة الاخرى . وتبعثرت على البلاطات ذات المساحات الهندسية المستطيلة ، فوق الجثة ، كتابات الطباشير والبوية والرسوم الحيوانية وخارطة رديئة لفلسطين رسمت بالفحم . وما أن استقرت الجثة على كتف الرجل المكمم حتى اصطدمت عيناه بكوة في الجدار المقابل ، يطل خلفها وجه صغير . كانت الكوة والباب ذا انبوب المجاري والنافذتان المهدمتان لبيت واحد . قال جامع الجثث :

ـ ما تفعلين هنا يا صغيرة ؟

وغاب الوجه عن الكوة ، وهبط جامع الجثث الدرجات . وبعد أن مدد الجثة في العربة ، وجد أن الباب مفتوح ، فتبع الصغيرة صاعدا سلما مظلما . كانت الصغيرة ترتدي تنورة حمراء تتقاطع حمالتاها على فانيلة مثقبة . وقادت البنت رجل الجثث لبهو النافذتين المطلتين على الحارة . كانت الجثة جالسة ويدها خارج النافذة . حول الجثة كان كل شيء قد مسه الاحتراق .. دفاتر وحذاء وثياب مبعثرة وأغلفة طلقات وصورة سقطت من مسمارها ونثار اشياء مجهولة. كانت الغرفة وسخة ، وتحتوي كذلك على أريكة مقلوبة بدون فراش. جلست الصغيرة على قدم الاريكة المقلوبة . قال جامع الجثث :

ـ لم تتركين يده للخارج ؟

ـ أخاف مسه . هذا أخي .

ـ أيوجد اخر في البيت ؟

ـ لا . ذهبنا لاقاربنا في باب الخليل . وأقدم كل صباح لابقى جانبه ولا أقدر أن أمسه . كنت أنتظر من ينقله . كان يدرس للامتحان. أين ستنقله ؟

ـ سندفنه يا بنيتي . اذهبي لاهلك الان .

ـ بقي يضرب الرصاص صباحا وبعد الظهر . ثم قذفوه بقنبلة . وصعدوا فأخذوا بندقيته وطردونا وأخلوا البيت كله .

ومن النافذتين المرتفعتين كان جامع الجثث يرى تقوسات أخرى وسطوحا نظيفة واسعة تتدرج تحت الابراج . وأبعد من تلك السقوف التاريخية المقوسة للكنائس والدور الحجرية والاديرة التي تنفتح بينها الممرات والحارات والساحات ، خارج السور الواطىء الذي يخفي أجزاء منه ، في ذلك العراء النقي ، هناك ، تتوالى أشجار الزيتون السوداء الساكنة تماما على حافات التلال والهضبات المتدرجة في الارتفاع ، محاذية للطريق المبلطة . بينما الاف الطرق الاخرى غير المميزة تنساب بين المرتفعات وتنتهي عند السور . كان للارض القارية في البعيد ، هناك ، لون البشرات الميتة . والهواء ساكن . كما أن الاصوات غير الانسانية للسيارات في الشارع المجاور والطلقات المتقطعة تستمر في تقطيع نسيج الحياة العتيق وتلفه ـ لا عصافير أو طيور مهاجرة ، لا صراخ طفل أو أغنية . لم يكن يسمع صوت مذياع قط . كلا ، ولا يرى حبل غسيل . ولكن جامع الجثث سمع وقع أحذية على حجارة الحارة كان لجنديين اسرائيليين يتبعهما ثلاثة صبيان عن بعد .

حمل جامع الجثث جثة الشاب وهبط بها ، تبعه الصغيرة ، ثم رصفها في العربة . جر العربة من مقبضها الذي كانت نهايته تشير لاسفل ظهره .

نفذ جامع الجثث بالعربة الى أحد شوارع المدينة المسلوخة ، وخلفه كانت البنت الصغيرة تمشي الى جانب العربة . كان يفادي سقوط عجلتي العربة في حفر اسفلت الشارع وأنقاض الآجر والخشب المتناثرة ، كما كان على جامع الجثث أن يتغاضى عن النظر للجنود على الارصفة يقفون بجمود وكأن رؤوسهم المظلمة تفهم ان مكبرات الصوت كانت تذيع من أجل شطبهم وان الناس يبدلون باستمرار وانهم يتنفسون غازات سامة . ومرت شاحنة اسرائيلية كانت تلتقط المهاجرين ، لوثت عجلاتها وكتاباتها العبرية في مؤخرتها بالطين والاتربة.

تبادلت البنت كلمات حادة مع الاولاد . كانت تقول :

ـ هذا الرجل ليس أبي . ولكن أخي هنا في العربة .

وأخبرها ولد صغير :

ـ اطلبي شيئا يا بنت من الجنود وسيعطونك . أنهم يوزعون الحلوى .

وقالت الصغيرة :

ـ لن أطلب .

ثم ركضت خلف العربة . وقال لها جامع الجثث :

ـ اذهبي يا بنيتي . اذهبي الان وخبري أهلك اني سأدفنه وكفي عن متابعتي كالجروة .

ولكنه لم يبد عليه انه راغب في صرفها .

كانت الشمس تتفتت كلما تقدمت الظهيرة ، وكأنها تحتجب خلف أبخرة حديد منصهر . ومرت شاحنتان نقلان مهاجرين جددا . ثم عاد ذلك السكون القلق الذي يحيط عادة دمى متحركة تقدم أعمالها البهلوانية . وانبثق فجأة صوت ميكروفون كان يقترب من خلف العربة. واجتازت العربة سيارة عسكرية بطيئة تحمل ميكروفونا يتفاءل ـ باسم الحاكم الجديد ـ أن الهدوء والسلام سيعودان ليحلا في مدينة القديسين ، وان الاعمال الارهابية غير الحكيمة ستحول هذه المدينة

المقدسة الى بحيرة دم . كان الصوت الخشن الذي يتكلم العربية يحاول نطق : اننا نريد السلام . ومن الممكن تصور الشخص المحتجب في سيارة الميكروفون كأحد الحيوانات التي كانت تنطق في العصور السحيقة ، وهو يقول : أليس محتملا أن يقوم المسيح في هذه المدينة وحينئذ سيجد اليهود والمسيحيين والمسلمين يعيشون سوية على هذه الارض القديمة . ثم دخلت سيارة احدى الحارات . وفي باب تلك الحارة كومت كتل حجارة تستقر فوقها خوذتان وقطع معدنية صغيرة أخرى .

وحين قاربت العربة كوم الحجارة ، اندفع خارجا من الزقاق رجل يركض سرعان ما انهار وسط الشارع ، مستقرا بوضع الركوع ، ثم همد ، بعد أن أصابته رصاصات جنديين اسرائيليين كانا قد خرجا من الزقاق وأدركاه . وركله أحدهما بحذائه فانقلب متكورا ـ شابا دون سلاح . وأمر الجندي الاخر جامع الجثث كي يرفع الجثة للعربة. وأفسح رجل الجثث مكانا للجثة الجديدة ، ثم رفعها ورصفها في المكان الخالي ، غير ان أحد الجنديين ، يتكلم العربية ، قال :

ـ لم فسحت له مكانا ؟ انك تعتني به .

قال جامع الجثث :

ـ ذلك لا يهم بعد أن مات .

قال الجندي :

ـ ولكنه يهمني .

ـ أخفض جامع الجثث منديله الاحمر عن فمه ، وقال :

ـ أنا أعرف كيف أضعه . هذا عملي ولقد انتهى عملكم بقتله .

ثم اعاد المنديل لفمه ، لكن الجندي خفضه عن فم جامع الجثث ، فبقي المنديل حول الرقبة ، وأمره أن يجر العربة .

* * *

الحفرة الان تضم جثثا عديدة ، تراكم بعضها فوق بعض ، وفي السماء كانت جثة الفراغ المحلقة ، ذات الاستطالات الشمسية ، تمتد دون حدود واضحة هناك فوق المدينة الساخنة ، وهنا خلف السور . وعلى بعد من الحفرة يقف جامعا الجثث الاولان وقد أزاحا منديليهما ، وأقر أحدهما :

ـ الرائحة لا تهم .

وقرعت أجراس خلف السور ثم صمتت . وارتفع اذان الظهيرة ثم انقطع في منتصفه . وجلس أحد رجلي الجثث مستندا لجدار السور دون أن تمس عجيزته الارض . وقال الاخر :

ـ شاهدت اخرين ينقلون الموتى .

ـ في كل مكان كانت هناك جثث .

ـ وأين الاخر ؟

ـ لا بد انه ذهب بعيدا عن البوابة .

وظهر في بوابة السور جندي اسرائيلي أوما للرجلين ، فاتجها نحوه . وفي داخل البوابة شاهدا جنديا اخر يقف عند عربة ملأى بالجثث . ولصق عجلة العربة استلقى رجل ، لم يمت بعد ، يحيط رقبته بمنديل أحمر ، وينفصل عقاله عن رأسه . قال جامع الجثث المحتضر لزميله الجاثي فوقه :

ـ ضعوني في الحفرة فوقهم .

وحمل جامعا الجثث الرجل والقياه فوق جثث العربة على بطنه . وعلى ظهره ظهرت عدة طعنات سونكي نافذة . تبع الجنديان العربة التي سحبها جامعا الجثث كل من جهة ، وكان مقبضها يمس الحجارة ويحدث صوتا في انسحابه .

استند الجنديان لحائط السور ، بينما أفرغ رجلا الجثث العربة ، واختلطت الجثث ببعضها في الحفرة . أمر جندي :

ـ ردا التراب .

وحين انتهى رجلا الجثث من مساواة الحفرة بالارض ، انسحب الجنديان ، وغابا في قوس البوابة . قال أحد الرجلين :

ـ لقد فقدت قلبي . لا أستطيع أن أحزن أو أبكي .

قال الاخر :

ـ ليتهم سيموتون كلهم هكذا .

وكانت تراقب عملية الدفن بنت صغيرة لم يعرها أحد اهتماما. وافترق جامعا الجثث في جهتين مضادتين ، دون موعد اخر . وسمعت الطفلة أحدهما يخبر الاخر :

ـ نحن لا نعرف بعضنا وهذا أفضل .

وبقيت جثة الفراغ العظيمة تمتد فوق المدينة والعراء ، باستطالاتها الشمسية ، ولا يبدو ان بالامكان دفنها أو ازالتها ، وانها ستعاود الظهور في كل صباح جديد أبدا .

وجلست الطفلة فوق تراب الحفرة ، ترقب أشجار الزيتون البعيدة، التي تلوح لها في وهج الشمس كأجساد منحوتة سوداء تنبثق من باطن الارض المرتفعة وتعرج نحو السماء .

محمد خضير

يسر دار الاداب ان تقدم

ادونيس

في ديوانه الجديد

المسرح والمرايا

الجزء الاول

ديوان كبير لشاعر كبير

يصدر قريبا